

نبذه عن الموسيقى فى المغرب العربى

وائل قافيش

تكمّن بعض الصعوبة فى كتابة وتحليل الموسيقى فى المغرب العربى وذلك لتعددّها وتنوعها واحتوائها على العديد من الأنماط الموسيقية والغنائية المحلية الموروثة شفويّاً وبالطرق التقليدية منذ أزمان طويلة، وما دخل عليها من مؤثرات أخرى من بلدان مجاورة ساهمت فى إعطائها لونا فريدا من الفن الممزوج باللون الأفريقيّ والأمازيغيّ والعربى الشرقى إضافة إلى الأوروبيّ. فالمغرب العربى يحوي مجموعة كبيرة من الضروب الغنائية المتعددة منها الكلاسيكية الأندلسية الأصل والمنشأ والشعبية التقليدية المحلية سواء كانت جبليّة، بحريّة أو صحراويّة، والموسيقى الدينية الشاملة على الإبتهالات والتواشيح والذكر وغيرها، والموسيقى الحديثة الرومانسية وأخرى خفيفة راقصة. كثيرة هي الأنواع والأشكال التي تجمعها روح مغربية واحدة فى طبعها وهويتها وأسلوبها الفنى ولهجتها المميزة سواء كانت عربية فصحي أو دارجة أو غيرها من اللهجات المتداولة. سنتطرق فى هذا البحث الموجز لأهم القوالب الموسيقية والغنائية وأهميتها التاريخية والفنية وسوف نتطرق إلى مجموعة من المؤلفات الأكثر تداولاً وشهرة فى المغرب العربى وإلى ذكر أهم الآلات الموسيقية المستخدمة.

لم تصل الموسيقى المغربية الى بلاد المشرق قبل السبعينات وذلك لعدم توافر الأجهزة الإعلامية كالمدياع والتلفزيون وحتى بعد توافرهم لم تذع أغاني وبرامج من المغرب العربى بسبب العدد المحدود للمحطات الإذاعية والتلفزيونية فى ذاك الوقت، ولكن فى منتصف السبعينات وبداية الثمنيات وعن طريق إذاعة ال بي بي سي ومونت كارلو ومحطات الموجة القصيرة وصلت وشاعت أغاني لفرق موسيقية مغربية مثل "جيل جلاله" و"ناس الغيوان" و"المشاهب"، والتي كانت تتمتع بشعبية كبيرة كان روادها من مختلف الأعمار حيث مثّلت هذا الفرق جزءاً من التراث الغنائى المغربى الشعبى والجماهيرى الحديث اعتمد على غناء قصائد بالفصحى والدارجة ارتبطت بالأوضاع السياسية والإجتماعية والإقتصادية فى المغرب العربى بشكل خاص والوطن العربى بشكل عام. كانت هذه الفرق تنادى بالمساواة والعدل والمحبة والتآخي وكانت الموسيقى والغناء تقدم بشكل فنّي متقن بجمال النغم ومليء بالمعاني والمفردات المعبرة. كانت الأغاني غنيّة بالإيقاعات التقليدية المتداولة والمميزة وبألحان طربية تحكي قصة الإنسان العربى وحياته المتعبه المثقله بالهموم. تذكرنا هذه الأغاني ببعض ما قدمه بعض الفنانين العرب فى بداية القرن العشرين مثل سيد درويش والشيخ إمام عيسى فى الستينات أو زياد الرحباني،

وسميح شقير ومرسيل خليفة في الثمانينات. وايضا ببعض الفرق الغربية التي كانت شائعة في نفس الوقت وفي أوضاع سياسية واجتماعية مماثلة مثل "الرولتج ستونز" و"بيت سيجر" أو "بوب ديلون" أو "جون لينون".

أما النوع الثاني الذي وصل بلاد المشرق، فكان اللون الرومانسي المصاغ بال قالب التقليدي المغربي ذو اللهجة المغربية المميزة تمثل في فرق موسيقية أوركسترالية شبيهة بفرق الموسيقى العربية في مصر وبلاد الشام والتي كانت مكونة من عدد كبير من الآلات التي تستخدم في الموسيقى الغربية ومجموعة من الآلات الشرقية مع إضافة بعض الآلات الكهربائية كالأرغن المشرق أو الجيتار الكهربائي والمندولين. ومن أشهر الفنانين الذين اشتهروا بهذا النوع، عبد الوهاب الدوكالي وعبد الهادي بالخياط وحמיד الزاهر والذي اعتمد فن الأخير على العود فقط مع مصاحبة الإيقاعات المغربية الراقصة والمعقدة التراكيب.

إذن كانت هذه الأغاني تحمل طابعين: واحد مصبوغ بصبغة وطنية وسياسية وشعبية عبرت عن حالة من عدم الاستقرار والاضطراب التي تمر بها الشعوب من حين إلى آخر. والنوع الآخر كان القالب الرومانسي العاطفي والمليء بالشجن والآهات والتلاقي والفراق كحال أي غناء حسي وتعبري نجده في أرجاء كبيرة من الوطن العربي.

أما بالنسبة إلى الغناء الكلاسيكي التقليدي المغربي، فهو تراث غني بكل معنى الكلمة، تاريخياً وفنياً. كما أن تراثنا الشرقي متنوع وقريب بعض الشيء فإن التراث المغربي أيضاً متنوع ومتشابه إلى بعض الحدود. فمثلاً عندما نطلق كلمة "موسيقى كلاسيكية مغربية" فإننا نقصد هنا "الطرب الأندلسي" أو "النوبة الأندلسية" أو "موسيقى الآلة" وهو الغناء المتوارث من حضارة عرب الأندلس ما بين القرن التاسع والرابع عشر الميلادي، كانت بدايته في غناء القصائد البسيطة النظم والتي ساهم في إنتشارها في شمال أفريقيا شعراء وموسيقيون من بلاد الشام والعراق ومصر، تطورت في بلاد الأندلس إلى نسيج غنائي متكامل ذا قوافي متعددة وإيقاعات مركبة ثقيلة سميت "بالموشحات"، نسبة إلى الوشاح الذي كانت ترتديه النساء في ذلك الوقت، حيث كانت طريقة نغمها الفني يشبه الوشاح المطرز والمنسوج بالألوان الجميلة. قيل انه كان لزرياب (777-845م) الموسيقي القادم من بغداد في أيام العصر العباسي أثر في تطوير هذا النوع من الموشحات أو النوبات أو ما يسمى بالغناء الأندلسي، ووفقاً لبعض المصادر فقد أنشأ زرياب في الأندلس مدرسة حديثة ومتطورة من الغناء العربي اعتمدت على أصول موسيقية شرقية أضاف عليها لمسات من الموسيقى المحلية من شمال أفريقيا بالإضافة إلى لمسة من

الموسيقى الإسبانية. فقد قيل إن جهود وعبقورية زرياب، ساعدت على إنشاء المدرسة الكلاسيكية للغناء الأندلسي ابتدأت من الغناء القصائدي المتقن والمبني على الوحدة البسيطة والبحور الشعرية الخفيفة إلى نوع جديد أكثر تطوراً وتعقيداً في تركيبته وإيقاعاته الطويلة المركبة حيث أضاف في صنعها إلى جماليات روح الغناء والطرب الأندلسي.

منذ بداية المدرسة الكلاسيكية الأندلسية، كانت "النوبات" تجمع في كتاب يسمى "الديوان" حيث جمعت فيه 24 نوبة على عدد ساعات اليوم، وهذا يعني أن كل نوبة كانت تؤلف على مقام معين (أو طبع) لكل فترة من ساعات النهار يتناسب روحياً مع هذا الوقت، فعلى سبيل المثال تعزف "نوبة العشاق" في فترة الصباح و"نوبة الماية" في وقت العشاء و"نوبة الحجاز" أو "الرست" في فترة الليل.

تنوعت النوبات حسب الوقت والمزاج الفني ولكن للأسف الشديد وبسبب إنهيار حضارة الدولة الأندلسية وخروج العرب وغيرهم ممن شاركوا في خلق واستمرارية هذا التراث الموسيقي الغني من أسبانيا، إنهارت معها فنون كثيرة منها الفنون الموسيقية، حيث فقدت الكثير من هذه المؤلفات من ذلك العصر وتفرّق الكثيرون من حفظة هذا التراث الذين كانوا يتوارثونه بالطريقة التقليدية عن طريق التلقين الشفوي. كان لقلة التدوين الموسيقي أكبر الأثر في ضياع الكثير من هذه المؤلفات وأهمها النوبات التي لم يتبق منها إلا 11 نوبة من أصل 24 نوبة. شكّلت بعدها النوبات المتبقية عدة مدارس وطرق وأساليب أصبح لهم أهمية كبيرة في الحفاظ على ما تبقى. أهم هذه المدارس، القسطنطينية والتلمسانية والغرناطية والمألوف الليبي والتونسي. أما بالنسبة للنوبات الـ 11 التي وصلتنا فهي نوبة الرصد، رصد الذيل، نوبة الماية، ونوبة رمل الماية، الحجاز الكبير، الحجاز الشرقي، عراق العجم، الأصبهان، العشاق، السيجا، الاستهلال وغريبة الحسين. أما بالنسبة لكلمة نوبة فهي تعني "دور" يتناوب فيه الموسيقيون وتعاد وتتوالى فيه الألحان والإرتجالات والأصوات الأدائية وغيره، وهذا الاسم "النوبة" أو "الصنعة" أكثر شهرة وتداولاً في الجزائر عن أرجاء أخرى في المغرب العربي حيث تسمى في المغرب بموسيقى "الألة" أو "بالطرب الغرناطي" و"المألوف" أو المألوف في تونس وليبيا، ولكن كل هذه الأسماء والألقاب ترجع إلى مدلول واحد وهو "الموسيقى الأندلسية". كما اسلفنا، فإن الموسيقى الأندلسية جمعت في كتاب سمي بـ "الديوان" حيث تشكل النوبة فيه الجزء الأكبر، يجمع "الديوان" عدداً من الأشعار والتي تقسم أحياناً إلى أقسام متجزئة فرعية تسمى "ميازين" كما هو الحال في النظام المقامي الإيراني المسمى "دستگاه" و "أفاز" وجزئياته في نظام "الجوشة" أو مقارنة بطريقة صياغة "الراجا" في الموسيقى الهندية والتي أيضاً كان عددها 24 راجا. كلمة ميازين جاءت من

كلمة ميزان أو إيقاع. تركز الموسيقى الأندلسية على خمس إيقاعات أساسية وهي: البسيط والبطايعي والقائم والقدام والدرج.

أما حركات النوبة الرئيسية فهي كثيرة وتعتمد على المؤلفات ذاتها وتشتهر فيها مدن فاس وطنجة وتطوان، وتعزف على النحو التالي:

1. البغية أو التوشية: وهي بداية الدوزان الجماعي أو ضبط الأوتار تمهيداً لمقام أو طبع النوبة المراد عزفها، وتهيباً للمستمع بالأجواء اللحنية للنوبة وعادة تكون بدون مصاحبة آلات إيقاعية.

2. الاستفتاح أو الاستهلال (وهو شبه المقدمة الموسيقية يتخلله مصاحبة إيقاعية).

3. المصدر: وهو مقدمة موسيقية تتكون من خانتين أو ثلاثة يتخللها تسليم (لازمة)، إيقاعها $6/4$ أو $3/8$ ويسمى بالسماعي الطائر أو $6/8$ سريع.

4. البطايعي وغناء الأبيات: يبدأ هنا الغناء الجماعي باللغة الفصحى والذي يتخلله أحياناً "إستخبار" وهو نوع من الإرتجال الصوتي يشبه الليالي أو الموّال في الغناء المشرقي.

5. البرول: وهو إيقاع قريب من إيقاع الملفوف في الموسيقى الشرقية.

6. الدرج: وهو عبارة عن غناء أبيات زجلية (شعر عامي أو دارج).

7. الخفيف: حركة تمهيدية إلى الختام ويمكن أن تحوي على إيقاع أعرج مثل النوخت $7/8$.

8. الإنصراف، الختم أو القفلة: وهي حركة غنائية سريعة نهائية على إيقاع $3/4$ أو $6/8$ تقود إلى خاتمة النوبة.

الآلات الموسيقية التي تستخدم في الموسيقى الكلاسيكية المغربية كثيرة ومتنوعة أهمها العود العربي أو الأندلسي أو القويطرة، الماندولين، الناي، الكمان بأنواعه، الرباب الأندلسي (الذي يشبه السرنجي الهندي)، وآلات إيقاعية مثل الطار والرق والنقارات أو الدربوكة.

أما الأشكال والأنواع الأدائية والموسيقية الأخرى الموجودة في المغرب فهي أيضاً كثيرة ومتنوعة وأهمها انتشاراً، **الملحون** وهو شعر شعبي زجلي يعتبر من الغناء الأندلسي ولكن باللهجة العامة. والملحون كلمة تعني القصيدة المُلحّنة. ويغنى الملحون بشعر يحاكي الطبقة العاملة وحيث ترافقه في الغناء آلات موسيقية.

الجنّانة أما فن الجنّانة فيتحدر من "جناوة" أو "غناوة" دخل إلى المغرب من إفريقيا الغربية خلال العصر الذهبي للإمبراطورية المغربية (نهايات القرن 16 الميلادي)، وهي دولة مالي

الحالية. تستخدم في أداء هذا الفن "القراقب" الإيقاعية النحاسية وآلة "الهجهوج" أو "السننير" وأحياناً الطبول.

العيطة: ارتبط فن العيطة بامتداد السهول الوسطى للساحل الأطلسي (الشاوية وعبدية ودكالة) وبعض المناطق المجاورة. وفن العيطة في مفهومه الأصلي والقديم يعني النداء، أي نداء القبيلة والاستنجد بالسلف لتحريك همم الرجال. يتميز هذا الفن بإيقاعاته الرائعة والصعبة في نفس الآن. وأشعاره مؤلفة على المدح والغزل والحماسة. ويقسم هذا الفن إلى ثلاثة أشكال: المرساوي، الحوزي، الملالي.

الموسيقى الأمازيغية: موسيقى شعبية من جبال الأطلس إشتهر فيها الفنان محمد رويشة على آلة "الوطار" مع مصاحبة أصوات نسائية والآت إيقاعية قريبة في أدائها وروحها إلى موسيقى "البلوز" الأمريكية.

نتمنى أن نكون طرقنا جزءاً بسيطاً ولكن مهماً من الأمور الفنية والتاريخية والثقافية المشهودة كذكرى وإحتفاءً بموروث عربي أصيل يذكرنا بأيام الأندلس الخالدة والعريقة بأمجاد العرب التليدة.